

ألف حكاية وحكاية (١٢٠)

ضحكة فرعونية

وحكايات أخرى

بقلم

يعقوب الشاروني



رسوم

نسيم

الناشر

مكتبة مصر

بيت الحكمة للثقافة والفنون
شارع كامل صديق - الفجالة
٥٩٠٨٩٢٠٠

ما بعد الأيام

في خاتمة كتاب "ما بعد الأيام" ، الذي كتبه الدكتور "محمد حسن الزيات" وزير خارجية مصر الأسبق ، عن والد زوجته الدكتور طه حسين ، عميد الأدب العربي ، يقول :

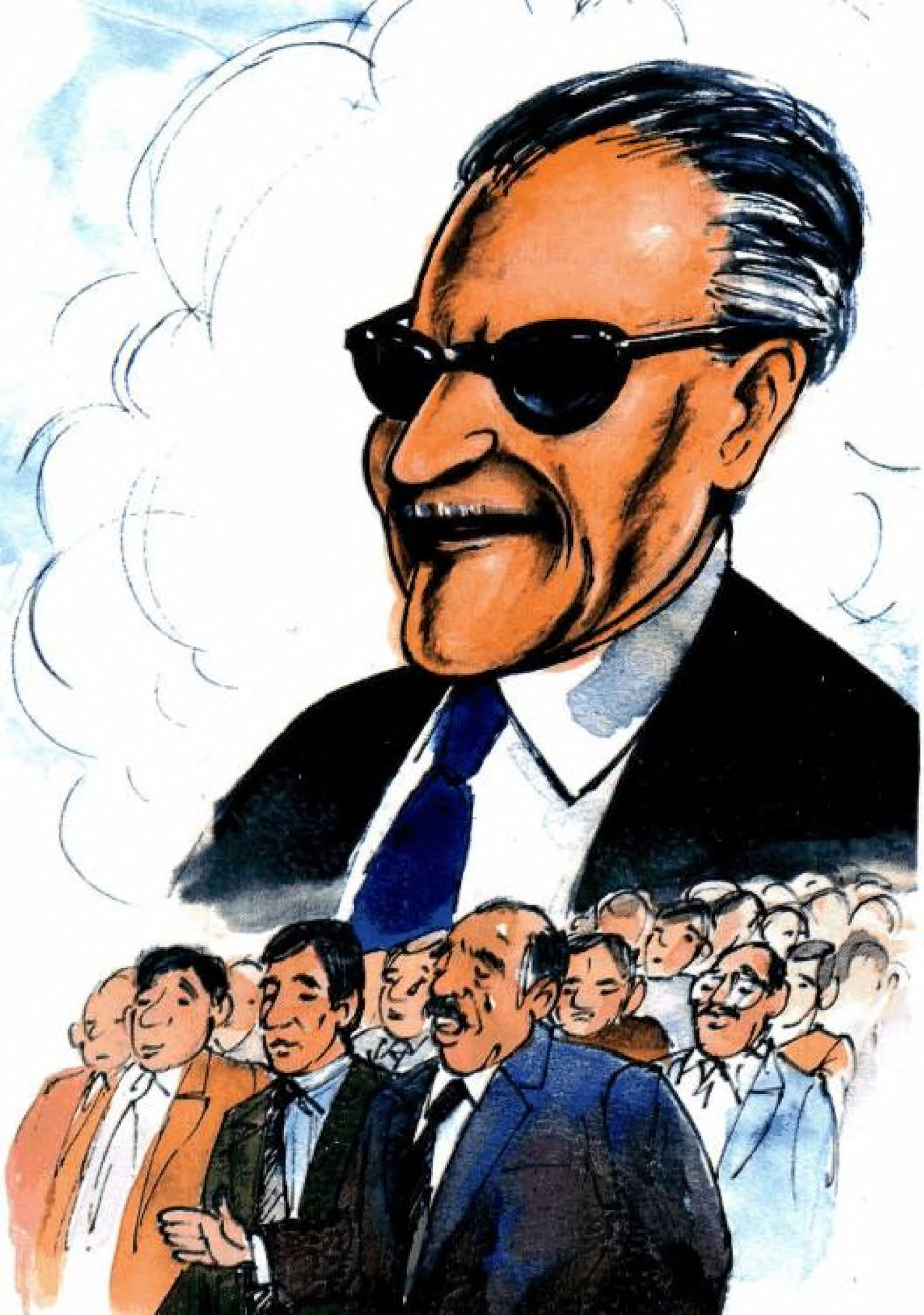
رأيت رجلاً من بين جماهير الشعب الذين وقفوا يُشيعون العميد ، بعد رحيله في الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وقف يبكي مع ابنه ويقول له :

"أنت يا بُنى تبكي طه حسين لأنك تعلمت منه ، وقرأت له ، وسمعت أحاديثه في الإذاعة .

وأنا يا بُنى لم أتعلم من طه حسين ، ولم أقرأ كتبه ، ولم أسمعهُ يتحدث في الإذاعة إلا نادراً ومصادفةً .

ولكني أبكيه يا بني ، لأنه هو الذي مكّنني ، منذ ثلاثة وعشرين عاماً ، من تعلّمي . وها أنت قد حققت لنفسك ولأسرتك من الثقافة والكرامة والخير ما حققت .

أبكيه يا بني ، لأن الله تعالى أكرمهُ بالعلم ، فلم ينس الجاهلين . وأغناه ، فلم ينس المحتاجين . وأسعده ، فلم ينس من في الأرض من المعدّيين ."



الدكتورة سهير القلماوى و " الشرشرة "

فى الكتاب التذكارى الذى أصدرته لجنة ثقافة الطفل
بالمجلس الأعلى للثقافة ، حول أستاذتنا الدكتورة سهير القلماوى ،
يقول الأستاذ الدكتور أحمد مرسى ، أستاذ الأدب الشعبى بكلية
الآداب جامعة القاهرة :

يُمكن أن أحكى الكثير عما تعلَّمْتُه من أستاذتى و أمى سهير



القلمماوى ، لكننى ساكتفى بحكاية واحدة ، تمثّل شخصيتها
وخصالها .

ففى بداية حياتى الجامعية ، عندما عُيِّنْتُ مُعيداً فى قسم اللغة
العربية ، و كانت أستاذتى الجليلة رئيساً للقسم ، طلبتُ منى ذات يوم
أن أكتب شيئاً فى أمر يخص القسم ، لكى تحمله معها إلى مجلس
الكلية ، وأن أفعل ذلك بسرعة .

كان معى " كشكول " من النوع الذى يجمعُ السلكُ أوراقه ،
فانتزعتُ ورقةً منه ، و كتبتُ ما أَرَادَتْهُ ، و ذهبتُ لأقدمه لها . و كانت
المفاجأة أنها لم تقرأ ما كتبتُ ، وإنما أخذتِ الورقة ، و نظرتُ إلى
و هى تكوّرُها بيديها ، و قالتُ بالحرف الواحد :

" يا بنى ، ما فيش واحد محترم يكتب على ورق مشرشر ..
هتكتب على ورق مشرشر ، ها تبقى هدومك مشرشرة ، و شغلك
مشرشر ، و ها تبقى إنت نفسك بنى آدم مشرشر ، و أنا ما احبش حد
من ولادى يبقى مشرشر . روح شوف ورقة عدلة ، و اكتب اللى طلبته
منك . "

و لم تكن سهير القلمماوى طوال حياتها " إنسان مشرشر " ، و لم
تسمح لأى من أبنائها و تلاميذها أن يكونوا " مشرشرين " !!

خافوا من تنويرك للعقول!!

في رواية الأديب "حسن محسب" عن "رفاعة الطهطاوى"،
والتي يقدم فيها ملحمة رائعة عن الحب لمصر والتضحية للوطن،



يحكى الكاتب الروائي الموهوب هذه الحكاية ، يقول :

"عندما تُوفّيَ محمد علي في الثاني من أغسطس سنة ١٨٤٩ ،

جاء بعده الخديو عباس .

أمر الخديو عباس : "تتمُ تصفية المدارس ، وتُحرقُ أو تُغلقُ
مدرسةُ الألسن!!"

وثار الطهطاوى ، وهرول إلى القلعة ، وقال لعباس : "هذا قرارٌ
يُعيدُ البلادَ إلى عصرِ الجمود والتخلف والظلام."

فغضبَ منه عباس ، وأمرَ بنفيه إلى السودان وهو يقولُ له
ساخراً : "شيخ رفاعة تُريدُ تعليم.. اذهب إلى طوكر بالسودان ،
عيّنتُك ناظرَ مدرسة ابتدائية هناك .. علّم الناس خرافاتٍ وهلوساتٍ
عن حرية .. وثقافاتٍ .. وحضاراتٍ .. ولن تعودَ من هناك ما دُمْتُ أنا
أحكمُ ..."

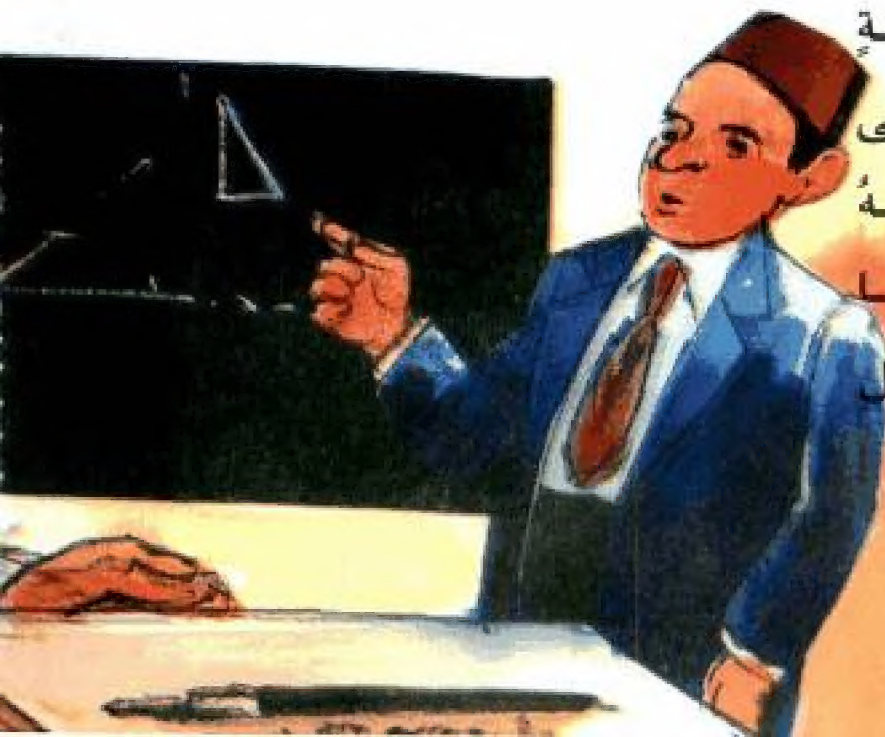
وكان لرفاعة زميلٌ بالأزهر ، قالَ له : "هذه وشايةٌ من الأمراءِ
والأعيانِ ، لأنهم خافوا من تنويركَ لعقول الناس ، وتعليمِ عامّةِ
المصريين .. وغضبوا من إلغائك اللغة التركية ، ودعوتك إلى الدستور
الحرية ، وهم يُريدون أمةً من العبيد.." وسافر الطهطاوى إلى
السودان ، لكن مع تولّي سعيد عرش مصر سنة ١٨٥٤ ، عاد إلى مصر ،
ليُكملَ مسيرة التعليم والتنوير.

على باشا مبارك .. أبو التعليم

عندما كان أستاذ الجيل " أحمد لطفى السيد " تلميذاً في مدرسة الخديوية سنة ١٨٨٩ ، وهى السنة التى حصل فيها على شهادة " البكالوريا " ، التى تُشبه الثانوية العامة العالية ، كانت المدرسة تعقدُ اختباراً كل شهرٍ لتلاميذها .

ويقول أستاذ الجيل : " رغبَ تلامذة البكالوريا أن تُعفيهم المدرسة من الاختبارات الشهرية ، حتى يُوجِّهوا كلَّ جهودهم فى المذاكرة لامتحان العام . وأجمع رأيهم على أن يطلبوا إلى وزير المعارف على باشا مبارك ، إعفاءهم منها . واختارونى للذهاب لمقابلته ، فذهبتُ إليه .

وكان من عادته أن يضع سبورة فى مكتبه ، لاختبار كل من يتقدمُ إليه من الطلبة فى حاجة يُريدها ، ولا يُجيبه إلى حاجته ، إلا إذا أجابه إجابةً صحيحةً فيما يختبره من المسائل الرياضية أو العلمية .



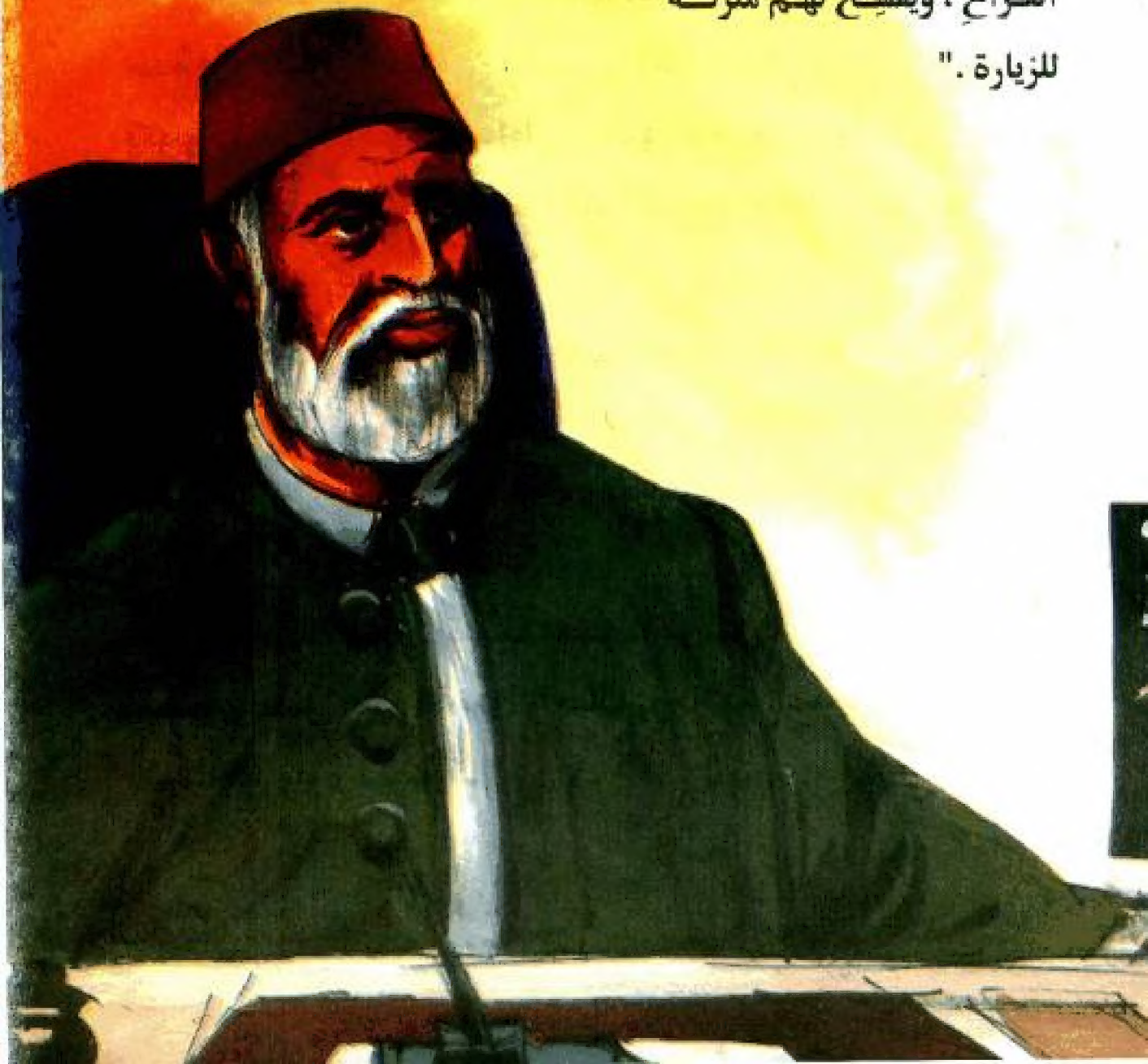
فلما وقفتُ بين يديه ، طلبَ مني أن أقفَ أمامَ السبورة ،
لأبرهنَ على النظرية الهندسية التي حاصلها " إن مُربَّعَ وترِ المثلثِ
القائمِ الزاوية ، يساوي مجموعَ مربعي الضلعين الآخرين . " فأثبتها
أمامه ، فوافقَ على الرغبة التي أوفدني زملائي من أجلها .

وقد كانَ رحمه الله أبًا للتلاميذِ مُحبًّا لهم ، عطوفًا عليهم ،

وكثيرًا ما يختلطُ بهم في وقتِ

الفراغِ ، ويُفسيحُ لهم منزلة

للزيارة . "



الجنود يحملون أولاد الأسرى !!

في الحديث الممتع المهم مع عالمة الآثار الفرنسية "نوبلكور" ،
الذي نشرته مجلة " المصور " في أحد أعدادها ، تؤكد عالمة الشهرة
حقيقة مهمة ، لم يتنبه إليها الكثيرون ، وهي أنه في مصر الفرعونية ، لم
يكن هناك عبيد ولا عبودية ، وهو ما يؤكد تقدمهم الحضاري
والإنساني. فتقول :

" المصريون القدماء لم يكونوا قساة على الإطلاق . كان هناك
خدم في المنازل ، يعيشون مع أسرة واحدة لأجيال عديدة ، لكنهم لم
يكونوا عبيدا . أما في الإمبراطورية الرومانية ، فإن القانون الروماني
كان يعتبر العبد " شيئا " ، وملكاً كاملاً لسيده ، يتحكم كما يشاء في
حياته أو موته ، كآنه بقرة أو ثور . "

" وكان هناك أسرى حرب في مصر القديمة ، ويمكن أن نعتبر
هؤلاء عبيداً ، لكن حتى هؤلاء لم تكن معاملتهم سيئة . بل إن
المصريين كانوا يسمحون للأسرى بإحضار زوجاتهم وأبنائهم ، ولم تكن
هناك دول أخرى تفعل ذلك . "

" وهناك كتابات قديمة لجنود مصريين ، يشتكون من أنهم
يضطرون لحمل أولاد الأسرى وأحياناً زوجاتهم ، عندما كانوا يعبرون
بهم مناطق وعرة .. تصور !! "

ثم تقول: "إن الأمريكيين لم يعاملوا السود الذين جلبوهم
من إفريقيا كعبيد هذه المعاملة الإنسانية، بل كان الزوج يُباعُ بعيداً
عن زوجته وأولاده، والزوجة والأولاد يُباعون بغير شفقة، كل واحد
منهم لسيدٍ مختلفٍ !! "



لن أقبل يده

كتب الكاتب الساخر "يعقوب صنوع" (١٨٣٩ - ١٩١٢) يحكي
عن نفسه ، قال :

كنتُ في طفولتي شديد الاعتداد بنفسى . وفي الثالثة عشرة
من عمرى ، كتبتُ قصيدة مدحتُ بها ناظر مدرستى . وعندما قرأها
والدى ، اقترح على أن أكتب قصيدة أمدح بها الأمير "أحمد" ،
حفيد "محمد علي باشا" حاكم مصر . فكتبتُ قصيدة طويلة قدمتها



والدى ، اقترح على أن أكتب قصيدة أمدحُ بها الأمير "أحمد" ،
حفيد "محمد على باشا" حاكم مصر. فكتبتُ قصيدةً طويلةً ، قدّمها
والدى للأمير ، الذى لم يصدّق أن صبيًّا فى الثالثة عشرة يستطيع أن
يكتب هذه الأشعار. وطلب الأمير أن يرى هذا الطفل المعجزة ،
فذهبتُ لأقابله.

وعندما دخلتُ قاعة الاستقبال ، كانتُ ملآنة بالزائرين.
وقدّمنى والدى إلى الأمير وهو يقول: "هذا هو الشاعر الصغير".
ثم همسَ لى قائلاً: "قبل يد الأمير".
أما أنا فحييتُ الأمير وأنا أقول: "السلام عليكم ورحمة الله".
وأمسكنى أبى بعنف ، وهو يقول بصوتٍ منخفضٍ: "لماذا لم
تقبل يده؟"

فأجبتُهُ: "لا .. لن أقبلها!!"

وهددنى والدى ، لكننى أصرت على الرفض.
وشعر الأمير بما يحدثُ بينى وبين أبى ، فحاول أن يستوضح
الأمر ، فسبقتُ أبى بالكلام وأنا أقول:
"لا أدري لماذا يريدُ والدى منى أن أقبل يدكم !! إننى
إنسانٌ مثلكم ، بل إننى أجيدُ كتابة الشعر!!"

ونزلتُ هذه الكلمات على أبى كالصاعقة ، لكنَّ الأمير لم
يغضب من ثقتى الكبيرة بنفسى ، بل أمر أن أكملَ تعليمى فى أوروبا ،
على نفقته!!

طريقتهم فى ذلك الحين

يتحدثُ أستاذُ الجيلِ أحمد لطفى السيد ، فى كتابه "قصة حياتى". عن بشاعةِ أساليبِ الحكمِ فى نهاية القرن التاسع عشر ، أى سنة ١٨٨٢ تقريبًا ، وكان عمره عشر سنواتٍ ، فيقولُ :
"أذكرُ أن الضربَ فى ذلك الزمانِ كانَ مباحًا ، حتى ضُربَ العمدة والأعيان ، وكانَ هذا بعضَ ما يحدثُ فى القرى المصرية من القسوة والاستبداد.





وقد رأيتُ ذلك بنفسى أكثر من مرة ، إذ كان لوالدى صديقُ
يشغلُ وظيفة "مفتش تفتيش" ، فكُنْتُ وأنا بمدرسة المنصورة ، أذهبُ
إلى بيته يوم الجمعة ، فأرى حوش التفتيش مرشوشاً ، والبيك
المفتش قاعداً فى صدره ، وقد وقف اثنان من "القواسة" (مثل
الخفراء) يحملان الكبراج و "الفَلَقَة" (وهى أداة للضرب على باطن
القدم) لضرب العمدة الذين يتأخروا أهل قريتهم فى دفع الإيجار.
ثم يضيفُ أستاذ الجيل قائلاً: "وكأنتُ هذه هى طريقتهم فى
ذلك الحين .. فانظر كيف كانت الحال بالأمس ، وكيف هى اليوم."

ضحكة فرعونية !

قد تكون هذه هي أقدم النواذر التي سجلها الإنسان ، فقد وجدناها مكتوبةً على قطعةٍ من ورق البردى ، يرجعُ عهدُها إلى حوالي سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد.

وتقولُ الحكايةُ ، إن أحدَ الكتبةِ كان يقومُ بتسجيلِ العقودِ في غرفتهِ قربَ مدخلِ معبدِ آمون ، فأزعجتهُ الضوضاءُ المنبعثةُ من الغرفتينِ عن يسارِ ويمينِ غرفتهِ ، وكانَ يعملُ في أحدهما نجارٌ ، ويعملُ في الأخرى بئاءٌ.

وأحسنُ الكاتبُ أنه سيُجنُّ من الضوضاءِ ، فذهبَ إلى النجارِ ، وقَدَّمَ إليه مبلغًا كبيرًا من المالِ ، لكي يتركَ غرفتهُ إلى غرفةٍ أخرى. ثم فعلَ نفسَ الشيءِ مع البئاءِ. وأخذَ الرجلانِ المالَ ، بعد أن وافقاه على طلبيه.

وفي اليومِ التالي ، اكتشفَ الكاتبُ أن البئاءَ انتقلَ إلى غرفةِ النجارِ ، وأن النجارَ انتقلَ إلى غرفةِ البئاءِ !!

